الصراع الزيدى العثمانى فى اليمن
(١٥٣٨-١٥٧٤م)

د. هانى مهنا
أستاذ مساعد فى التاريخ الحديث
جامعة الملك عبد العزيز
كلية الآداب - قسم التاريخ

الصراع الزيدى العثمانى فى اليمن
(فى الفترة ١٥٣٨ - ١٥٧٤ م)

إن إستقراءنا لحقيقة الصراع الزيدى العثمانى فى الفترة ١٥٣٨/١٥٧٤م من مراحل التاريخ اليمنى الحديث، يوضح لنا أنه كان صراع مصالح وإستراتيجيات أكثر منه صراعا عقديا مذهبيا. فعلى الرغم من الإختلاف المذهبى بين العثمانيين الأحناف الزيديين الشيعة، إلا أن هذا الاختلاف لايمثل عاملا جوهريا من عوامل الصراع الدموى الذى كان محتدما بين الطرفين فى هذه الفترة. ولتوضيح ذلك نرى انه من المفيد فى دراستنا هذه أن نلقى بعض الضوء على ما حققه الزيديون قبيل فتح العثمانيين لبلاد اليمن سنة ١٥٣٨م. فقد نجح الإمام شرف الدين وأبناؤه، وفى مقدمتهم المطهر بن شرف الدين من أن يسيطروا على أغلب المناطق اليمنية مستغلين بذلك تضعضع القوتين الأخرتين اللتين كانتا قائمتين فى البلاد ألا وهما قوة الطاهريين فى عدن والمناطق الجنوبية، وقوة المماليك فى زبيد وما حولها[١]. فما أن أعلن فى صنعاء عن سقوط دولة المماليك سنة ١٥١٧م فى مصر على يد العثمانيين، حتى سارع زعيم المماليك فى بلاد اليمن الاسكندر بن محمد باعلان دخوله تحت التبعية العثمانيةالأسمية[٢] وانسحب بقواته من صنعاء متجها إلى زبيد مخلفا وراءه حامية صغيرة بها[٣]. ومن الطبيعى أن ينتهز الإمام شرف الدين هذه الفرصة ليوسع ممتلكاته، فسارع بإرسال قواته إلى صنعاء، حيث نجحت هذه القوات فى السيطرة عليها سنة ١٥١٧م[٤]. وأخذت المناطق اليمنية الأخرى تتساقط تباعا، ففى سنة ١٥٢٠م سيطر الإمام على ذى مرمر بعد أن سلمها عامل الطاهريين بها، وفى سنة ١٥٢٢م سقطت منطقة عمران وبعض مناطق بلاد همدان وفى سنة ١٥٢٨م سقطت

كل من خولان والمقرانه والفارد ووردع. وفى سنة ١٥٣٤م سيطرت جيوش الإمام بقيادة المطهر على مدينة تعز. بل إن قوات الإمام حاولت إسقاط كل من زبيد آخر معاقل المماليك فى بلاد اليمن، وعدن مرتكز الطاهريين الحصين، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل لإحكام المماليك خطة دفاعهم عن زبيد باغراق السبل المؤدية إليها بالماء وذلك لإعاقة حركة الجيوش الزيدية، وجعلها هدفا سهلا للقوات المملوكية المدافعة. كما فشلت محاولات الزيديين فى اسقاط عدن لمناعة هذه المدينة الطبيعية، وسهولة الدفاع عنها لمن فى داخلها(٥).

ولم تقتصر حروب الإمام شرف الدين وابنائه على المماليك والطاهريين، بل تعدتها إلى بعض الزعامات المحلية المناوئة لحكم الإمام كحربهم للسيد عز الدين بن الحسن المؤيدى صاحب مدع وكحلان، وحربهم للأمير عبد الله الشويع أحد أمراء منطقة الجوف(٦) وحربهم للداعى حسين بن إدريس بن عبد الله زعيم طائفة الإسماعيلية ببلاد اليمن(٧)، وقد أسفرت جميع هذه الحروب - فى محصلتها النهائية - لصالح الإمام شرف الدين.

فما أن وصلت حملة سليمان باشا الخادم إلى أرض اليمن سنة ١٥٣٨م، إلا وكان الإمام شرف الدين وأبناؤه يسيطرون فعليا على معظم مناطق اليمن. ومن البديهى إذا أن يقف الإمام شرف الدين ومن خلفه أبناؤه والزيديون - من القادمين الجدد (العثمانيون) - موقف المعادى المتربص حيث أن قدوم العثمانيين هذا من شأنه أن يحرم الإمام شرف الدين وأبناؤه بصفة خاصة من حلم إنشاء دولة تحت زعامتهم تشمل معظم المناطق اليمنية، كما أنه من شأنه أن يحرم الزيديون بصفة عامة من حلم طالما داعب مخيلتهم, ألا وهو السيطرة على المناطق الجنوبية والتهائم الأكثر غنا وثروة من مناطق سكنى الزيديين(٨).

وفى المقابل، كان العثمانيون قد قدموا إلى بلاد اليمن لخدمة غرض أكبر من مجرد السيطرة على هذه البلاد وجعلها إحدى إيالات الدولة المترامية الأطراف. فقد كان هاجس العثمانيين مواجهة الغزو البرتغالى للبحار الشرقية، وحماية الأماكن المقدسة التى كانت عرضة لتهديدات متكررة من السفن البرتغالية[٩]. والأمر كذلك كان لابد للعثمانيين بعد سيطرتهم على السواحل اليمنية من الإطمئنان على سلامة الجبهة الداخلية لبلاد اليمن، والعمل على إستئصال كل ما يعوق تحقيق هذا المطمح، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت أنذاك فى عنفوان قوتها، وليس أضمن للعثمانيين من تحقيق وحدة الجبهة اليمنية إلا إحكام السيطرة الفعلية على كافة المناطق اليمنية. ولتحقيق هذا الغرض انتهج العثمانيون سياسة يمكن لنا أن نصفها تجاوزا بسياسة المراحل. وقد تناغمت هذه السياسة مع الإستراتيجية العسكرية – كما نتصورها – التى إنتهجها العثمانيون لمواجهة أخطار تغلغل البرتغاليين داخل البحر الأحمر.

فالمرحلة الأولى

كانت تقضى بأن يكتفى العثمانيون بإحكام السيطرة على أهم المناطق الساحلية اليمنية، وتثبيت دعائمهم فيها، مع إشعار البرتغاليين بمدى حجم القوة العثمانية فى بلاد اليمن، وهذا بدوره سيؤدى إلى رفع معنويات المسلمين فى المناطق المتأثرة بالوجود البرتغالى.

والمرحلة الثانية

كانت تقضى بتصفية القوى السياسية المحلية فى المناطق اليمنية الداخلية، حتى لا تشكل هذه القوى أى خطر مستقبلى على نفوذ العثمانيين فى المناطق الساحلية. ولما كان الزيديون الممثلون بأسرة الإمام شرف الدين هم القوة السياسية المحلية ذات الوجود السياسى الملموس، كان لابد للعثمانيين من الدخول فى صراع حتمى معها.

على ضوء هذا التصور أجدنى منساقا نحو الإعتقاد بأن هدف الحملة العثمانية سنة ١٥٣٨م الأساسى لم يكن من قبيل منازعة البرتغاليين السيطرة على البحار الشرقية أو الدخول معهم فى حروب تصفية وإزاحة بقدر ما هو إحكام لسيطرة العثمانيين على بلاد اليمن بما يعنيه ذلك من تصفية للكيانات السياسية المحلية القائمة آنذاك. وذلك لاتساق هذا العمل - كما ذكرنا سابقا - مع غيره من الأحداث التى تمثل الإستراتيجية العسكرية العثمانية لمواجهة البرتغاليين فى البحار الشرقية.فقد كانت هذه الإستراتيجية - كما أحسبها - تقضى بأن ينتهج العثمانيون سياسة دفاعية فى صراعهم مع البرتغاليين يدفعهم إلى ذلك أن القوة العثمانية فى أساسها قوة برية(١٠)، مع الاعتراف بأنه قد كان للعثمانيين أساطيل قوية فى حوض البحر المتوسط، وأنها نجحت فى تحقيق العديد من الإنتصارات البحرية(١١)، إلا أن الأمر يختلف كثيرا إذا ما سُلطت الأضواء على البحار الشرقية، حيث إن الوجود العسكرى البحرى العثمانى محدود جدا، فى المقابل كان البرتغاليون - وهم فى أساسهم بحريو القوى - قد نجحوا منذ سنة ١٥٠٥م فى تأسيس مستعمرة لهم بساحل المليبار، مع ما يعنيه ذلك من وجود عسكرى بحرى قوى(١٢). لذا فإن السيطرة العثمانية على بلاد اليمن، ومن ثم السيطرة على سواحل افريقيا الشرقية المطلة على البحر الأحمر من شأنه أن يحول هذا البحر إلى بحيرة عثمانية(١٣)، وهذا ما شرع العثمانيون فى تحقيقه منذ السنوات الأولى لإستيلائهم على بلاد اليمن.

ولتحقيق المرحلة الأولى من هذه السياسة العثمانية، غادرت حملة سليمان باشا الخادم السويس سنة ١٥٨٣م بعد إكمال الترتيبات اللازمة فى طريقها إلى اليمن(١٤). ونجح الخادم فى السيطرة على عدن بعد اعماله الحيلة حيث غدر بسلطان الطاهريين عامر بن داؤود فقتله مع بعض من وزرائه(١٥). وبعد أن إطمئن الخادم إلى استتباب

الأمر له فى عدن ترك بها حامية تقدر بنحو ٥٠٠ جندى وعين لها حاكما عثمانيا ثم إتجه إلى الهند. وفى الهند ساهمت الحملة فى محاصرة حصن ديو الذى كان تحت سيطرة البرتغاليين، إلا أنه قبل سقوط الحصن عاد إلى السواحل اليمنية، حيث أكمل سيطرة العثمانيين على هذه السواحل فدانت الشحر لهم حيث أعلن حاكمها بدر بو طويرق دخوله تحت التبعية العثمانية، فى المقابل تم تعيينه حاكما على المنطقة الممتدة من حضرموت إلى ظفار. ثم سقطت منطقة المخا فى يد العثمانيين بعد أن غدر الخادم بأميرها المملوكى الناخوده أحمد فقتله مع بعض عبيده. كما سيطر الخادم على جيزان بعد طرده لعامل شريف مكة أبو نمى عليها، وتعيين عامل لها من قبله، وجعلها تابعة لمنطقة زبيد تأتمر بأمر حاكمها، وقبل ارتحال الخادم عن بلاد اليمن، أوصى نائبيه فى زبيد وعدن بضرورة اخضاع منطقة تعز للحكم العثمانى(١٦)، لتكتمل بذلك المرحلة الأولى من مراحل سيطرة العثمانيين على بلاد اليمن. ومن الجدير بالملاحظة أن هذه المرحلة من مراحل السيطرة العثمانية على بلاد اليمن لم تخل من الإحتكاك العسكرى مع قوة الزيديين المسيطرة على منطقة تعز. فقد حاول العثمانيون عملا بتعليمات الخادم إسقاط بعض الحصون القريبة من زبيد كحصن قوارير، كما عملوا على إسقاط منطقة تعز، إلا أن الزيديين نجحوا فى الدفاع عن ممتلكاتهم هناك وتكبيد العثمانيين خسائر فادحة إضطرتهم للإنسحاب إلى زبيد مخلفين ورائهم بعض المدافع والأثقال(١٧).

لقد ظل العثمانيون يتحينون الفرص لإخضاع ما تبقى من بلاد اليمن تحت سلطانهم، والإجهاز على القوة الزيدية القائمة فى المناطق الداخلية. وقد تهيأت لهم الظروف فى سنة ١٥٤٦م حينما دب النزاع داخل أسرة الإمام شرف الدين، وتفاقم للدرجة التى دفعت المطهر بن شرف الدين لأن يكاتب القبائل الموالية للإمام يخبرها

بخلع عصى الطاعة عن والده. وكانت ثالثة الأثافى استدعاء المطهر أويس باشا الوالى العثمانى فى زبيد ليحثه على مهاجمة صنعاء، ويعده بالمساعدة لتحقيق ذلك. ومن الطبيعى أن ينتهز اويس باشا هذا الظرف، فزحف بقواته نحو صنعاء عن طريق ذمار، وبعد قليل من المعوقات نجح العثمانيون بقيادة ازدمر – الذى تولى قيادة القوات العثمانية بعد مقتل اويس باشا – فى السيطرة على مدينة صنعاء(١٨)، ليمد بذلك سلطان العثمانيين إلى المناطق الداخلية، وليقلص من أملاك الزيديين فى البلاد لتنحصر فى المناطق الجبلية الوعرة كثلا وكوكبان وغيرهما. ومن المفارقات الغريبة أن المطهر بن شرف الدين هو الذى تولى أمر الدفاع عن صنعاء أمام الزحف العثمانى، وذلك بعد أن تنازل له والده وأخوته عنها مقابل توليه أمر هذا الدفاع، وأبرم بين الطرفين إتفاق بهذا المعنى(١٩) إلا أن هذا الإتفاق حمل فى طياته بذور الخلاف والشقاق. فما أن بدأ المطهر فى إعداد العدة لمواجهة الزحف العثمانى حتى أخذ إخوته بالفشل والتخاذل.

ولم يكتف على بن شرف الدين بالإنسحاب إلى حصنه فى ذى مرمر، بل عمل على إستمالة القبائل التى كانت قد دخلت تحت طاعة المطهر للخروج على هذه الطاعة، بل وتحريض العثمانيين أنفسهم المتربصين فى ذمار للتقدم لحرب المطهر. بل إن سقوط صنعاء نفسها تم عن طريق خيانة أحد القائمين على حماية مداخلها الأساسية، بالسماح للعثمانيين بالدخول من ذلك المدخل إلى داخل المدينة. كذلك إنسحب شمس الدين بن شرف الدين إلى حصن كوكبان مضعفا بذلك فرص حماية صنعاء من مهاجميها(٢٠).

أمام هذا التخاذل من قبل إخوة المطهر، وأمام ثقل الحصار العثمانى للمدينة، آثر المطهر الإنسحاب من صنعاء إلى منطقته الحصينة ثلا. فسقطت صنعاء بعد سبعة

أيام من الحصار الشديد. وقد آثر إزدمر باشا متابعة المطهر إلى ثلا وحصاره لإخضاعه لسلطان العثمانيين، إلا أن المطهر نجح فى الصمود أمام القوات العثمانية المحاصرة، مما إضطر إزدمر لإنهاء الحصار والعودة إلى صنعاء بعد إبرامه إتفاقا مع المطهر(٢١).

كان هذا الإتفاق أشبه ما يكون بهدنة مؤقتة بين الطرفين، فقد إستشعر إزدمر مدى خطورة بقاء المطهر بن شرف الدين مسيطرا على منطقة ثلا دون إلحاق هزيمة ما به، لذلك ما لبث أن راسل السلطان العثمانى يطلب منه مددا عسكريا لتحقيق غرض إخضاع المطهر للسلطة العثمانية، أو إزاحته كلية من مسرح الأحداث. وقد أجابه السلطان العثمانى بذلك فأمده بثلاثة آلاف بندق وألف فارس من مصر، على رأسهم أمير الحج المصرى مصطفى باشا النشار الذى حمل معه إلى بلاد اليمن خطابا من السلطان العثمانى إلى المطهر يحمل فى طياته تهديدا وترغيبا للمطهر لإعلان طاعته للعثمانيين. ولما لم تؤد المراسلات التى تمت بين مصطفى النشار وبين المطهر إلى نهاية يرتضيها الطرفان، زحفت القوات العثمانية مرة أخرى إلى منطقة ثلا، وبعد حصار شديد لها، أدرك كل من إزدمر باشا ومصطفى النشار عدم إمكانية إسقاط هذا الحصن ، فآثرا عقد صلح مع المطهر. وعقد الصلح بين الطرفين على أن يسلم المطهر للدولة العثمانية منطقة الطويلة وحصونها، مقابل أن يحافظ المطهر على بقية ممتلكاته، ويعقد له لواء شريفا(٢٢).

لقد نجح العثمانيون فى هذه المرحلة من مراحل سيطرتهم على بلاد اليمن من إحكام السيطرة على صنعاء وأغلب المدن والمناطق الهامة الداخلية، عدا تلك التى تدخل تحت سيطرة المطهر، وقد هيأت لهم الهدنة مع المطهر إنتزاع أحد الحصون

المهمة داخل أراضى المطهر، ألا وهو حصن الطويلة، بما يعنيه هذا من دخول منطقة المطهر إسميا تحت سلطانهم.

ومما يلاحظ على الصراع الزيدى العثمانى فى هذه المرحلة من مراحل حكم العثمانيين لبلاد اليمن أن الجبهة الزيدية المتمثلة فى الإمام شرف الدين وأبنائه كانت جبهة قوية متماسكة فى بداية الصراع، أى فى مرحلة سيطرة العثمانيين على السواحل اليمنية ١٥٣٨ - ١٥٤٦م. وأن هذه الجبهة إعتراها الضعف والتفكك إبتداء من سنة ١٥٤٦م حينما دعا المطهر العثمانيين للقدوم إلى صنعاء وإسقاط حكم أبيه فيها. بل أن هذا الضعف والتفكك إستمر بعد ذلك، على الرغم من إبرام الصلح بين المطهر ووالده لمواجهة الزحف العثمانى على صنعاء. فنجد أن الإمام شرف الدين وإبنه شمس الدين أصبحا مؤيدين ومؤلبين لأزدمر فى حربه مع المطهر ففى ١٥٤٩م طلب شمس الدين من ازدمر مهاجمة مواقع المطهر، فقام ازدمر بمحاصرة منطقة بيت عز القريب من كوكبان لوقعها ضمن مناطق المطهر بن شرف الدين. وقد مكن هذا الخلاف ازدمر من أن يتعامل مع الخارجين على طاعة العثمانيين من الأمراء الزيديين بصفة منفردة فهذا عز الدين بن شرف الدين يلقى القبض عليه بعد أن تهاجم منطقة نفوذه، ويرسل أسيرا إلى الأستانة دون أن ينهض أحد من إخوته لنجدته، كذلك ترك المطهر قبيل عقد الصلح مع العثمانيين وحيدا فى مواجهة العثمانيين، إلا من بعض الخلصاء من أبناء أسرته كمحمد بن شمس الدين وبعض زعماء القبائل الموالية له.

من هذا يمكن لنا أن نخلص إلى أن النظرة إلى هذا الصراع على أنه صراع عقدى مذهبى قد تكون نظرة جانبها الصواب والأولى أن يدرس هذا الصراع على أنه صراع دولة تريد التوسع على حساب أمراء محليين يرغبون تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من سلطان، سواء كان ذلك تحت تبعية الدولة العثمانية أم كان غير ذلك.

ومما لا جدال فيه أن المطهر بن شرف الدين كان أبرز الأمراء الذين شكلوا خطرا حقيقيا على النفوذ العثمانى فى بلاد اليمن. فعلى الرغم من أن العثمانيين فى عهد أزدمر باشا كانوا قد نجحوا فى فرض سلطانهم على بعض من بلاد المطهر – منطقة الطويلة – وإبرام صلح معه تعهد فيه بعدم الخروج على الطاعة، إلا أن سوء سياسة الولاة العثمانيين الذين خلفوا أزدمر باشا كان دافعا للمطهر لأن يعد العدة لقيادة الزيديين خاصة واليمنيين بصفة عامة ضد الوجود العثمانى فى بلاد اليمن. ولعل الشرارة التى أشعلت تمرد القبائل اليمنية على العثمانيين كانت تولى الوالى رضوان باشا أمور ولاية اليمن. فعلى غير ما جرت عليه عادة من سبقوه من ولاة، لم يعمل رضوان باشا على تجديد أو إقرار الصلح المقصود بين العثمانيين والمطهر، بل على العكس من ذلك أرسل رسوله إلى المطهر ليخبره بتغييره للقواعد التى بنى عليها الصلح بين الطرفين(٢٣). الأمر الذى أدى إلى توتر العلاقات بين المطهر وبين رضوان باشا. فأخذ المطهر بن شرف الدين فى إرسال رسله إلى شيوخ القبائل اليمنية وبعض وجهاء اليمن يزكى فيها أحاسيسهم بمدى الظلم الذى يمارسه العثمانيون عليهم(٢٤) وكان رضوان باشا، بضغط من الأوضاع الإقتصادية التى واجهته، قد قام بزيادة الضرائب على بعض الفئات اليمنية التى كانت تعامل معاملة خاصة من الولاة الذين سبقوه، وعلى رأس هؤلاء طائفة الإسماعيلية(٢٥).

وقد دفعت هذه السياسة بعض هؤلاء الإسماعيليين للتحالف مع المطهر ضد العثمانيين. يضاف إلى هذا أن الممارسات العثمانية الخاطئة من بعض الجند وبعض الولاة كشرب الخمر والزنا والسرقات والغدر بالوعود إلى غير ذلك من الممارسات التى تتنافى مع الإسلام وتقاليد المجتمع اليمنى، أثارت شعورا عاما من السخط والإستياء لدى اليمنيين من الوجود العثمانى فى بلادهم.

ومما زاد إضعاف سيطرة العثمانيين على بلاد اليمن، السياسة التى إنتهجها العثمانيون بدءا من سنة ١٥٦٤م - وعملا باقتراح والى مصر محمود باشا - بتقسيم ولاية اليمن إلى قسمين منفصلين، وتخصيص وال مستقل لكل قسم، الأمر الذى أدى إلى فرقة الصف العثمانى فى الولاية وتزعزع ولاء الجند العثمانى ما بين وال وآخر(٢٦).

ففى سنة ١٥٦٦م أعلن المطهر خروجه على طاعة العثمانيين، فأرسل الرسل إلى جميع البلاد يخبرهم بذلك ويحثهم على مناصرته ضد الوالى العثمانى. كما أنه وجه إبن أخيه الحسين بن شمس الدين على رأس قوة إلى بلاد الظاهر، نجحت فى إلحاق الهزيمة بقوات العثمانيين هناك وأضطرتهم للإنسحاب إلى عمران. كذلك سير المطهر قوة بقيادة كل من السيد أحمد بن الحسين المؤيدى والأمير محمد بن ناصر الحمزى، حيث نجحا فى السيطرة على صعدا، كما نجح محمد بن شمس الدين بإيعاز من عمه المطهر فى التصدى لمحاولة العثمانيين السيطرة على جبل بيت خولان، بل إن محمدا أحرز نصرا على العثمانيين حين سيطر على حراز وأجبر الحامية العثمانية على الجلاء إلى صنعاء(٢٧). إزاء هذه الإنتصارات الزيدية طالب رضوان باشا المطهر بعقد هدنة بين الطرفين، ووافق المطهر على طلب رضوان هذا، حيث عقدت الهدنة، أجاز فيها رضوان باشا المطهر بن شرف الدين بالحفاظ على ما سقط تحت يديه فكان أن دخلت كل من نهم وخولان، والحدا وذى مرمر، والخشب والظواهر، وحراز، وحفاش، وملحات، تحت سيطرة المطهر، كما أطلق العثمانيون - كتعبير على حسن نواياهم تجاه المطهر - بعض الرهائن المحتجزين فى سجون العثمانيين(٢٨). وقد انتهز المطهر فرصة إرتحال رضوان باشا إلى الأستانة فزحف على صنعاء وحاصرها. وعندما هب مراد باشا - الوالى العثمانى على الجزء الأسفل من بلاد

اليمن – لفك الحصار عن صنعاء، منيت قواته بهزيمة ماحقة فتت من عزم القوات العثمانية، وشجعت اليمنيين بمختلف طوائفهم للمجاهره بمناصرة المطهر(٢٩). وتفاقم الأمر على العثمانيين لدرجة أن الوالى العثمانى مراد باشا قد لاقى حتفه حينما حوصر بجيشه من قبل رجال القبائل اليمنية وأجتز رأسه وأرسل إلى المطهر(٣٠). وبمقتل مراد باشا أستسلمت الحامية العثمانية فى صنعاء، فدخلها المطهر منتصرا سنة ١٥٦٧م(٣١).

وقد عمد المطهر إلى استكمال سيطرته على بعض المناطق الهامة، فسير الأمير قاسم بن الشويع إلى عدن فسيطر عليها، كما سيطر على ريمه، ووصاب وبرع، واكثر تهامة وجازان وبيت الفقيه(٣٢). ولم يبق فى يد العثمانيين إلا منطقة زبيد حيث نجح الوالى العثمانى حسن باشا فى الدفاع عنها ضد هجمات القوات الزيدية(٣٣).

لقد اعقب هذا المد الزيدى مدا عثمانيا بدأ بنجاح حسن باشا، كما ذكرنا آنفا فى الدفاع عن الوجود العثمانى فى مدينة زبيد، وتلاه وصول المدد من السلطان سليمان القانونى قوامه ثلاثة آلاف جندى بقيادة عثمان باشا إبن ازدمر باشا. وقد نجح العثمانيون بفضل هذا المدد من السيطرة على مدينة تعز ومحاصرة الحامية الزيدية فى حصن القاهرة، وإلحاق الهزيمة بجيوش المطهر التى أرسلها لفك الحصار عن هذا الحصن(٣٤) وكان فى وصول الوزير سنان باشا على رأس قوة كبيرة إلى اليمن سنة ١٥٦٨م، نهاية للسيطرة الزيدية على جميع المناطق التى كانوا قد انتزعوها من أيدى العثمانيين. فكان أن عادت كل من عدن، وجازان، وذى جبله إلى طاعة العثمانيين فى سنة ١٥٦٨م، وفى سنة ١٥٦٩م سقطت مدينة اب، وبعدان، وغيرها من المناطق. وانحصرت المقاومة الزيدية على الغالب فى منطقتى ثلا، وكوكبان، وعلى الرغم من أن محاولات سنان باشا المتكررة إسقاط هاتين المنطقتين، إلا إنهما إستعصتا عليه

لحصانتهما الطبيعية، ولتمكن المطهر من مباشرة قيادة المقاومة فى ثلا، والاتصال والتنسيق مع ابن أخيه محمد بن شمس الدين فى كوكبان. إلا أن الأخير بعد أن إشتد عليه الحصار آثر عقد هدنة مع سنان باشا، وتم الصلح بين الطرفين سنة ١٥٦٩م. وقد كان هذا الصلح تمهيدا للصلح بين المطهر وبين سنان باشا الذى أنهى حالة الحرب بين الطرفين، وقد بدا هذا الصلح أن اليد العليا كانت للعثمانيين حيث أن المطهر أذعن لشرطهم فى أن تظل قوة عثمانية فى منطقة الطويلة التى هى من ضمن أملاك المطهر، فى مقابل أن يحتفظ بما تحت يديه فى ثلا(٣٥).

مما سبق يمكن لنا أن نخلص إلى أن الزيديين كانوا قبيل مقدم العثمانيين جبهة موحدة تحت لواء الإمام شرف الدين، ثم ما لبث وأن دب الانقسام فى صفوفهم، وقد يكون هذا من نتائج التفوق العثمانى العسكرى، ثم ما لبث وأن نجح المطهر بن شرف الدين فى توظيف تخبط السياسة العثمانية فى بلاد اليمن لتحقيق بعض المصالح الشخصية التى اتفقت مع مصالح القبائل اليمنية فى التمرد على الحكومة القائمة، والسؤال الذى يتبارد إلى ذهن الباحث فى هذا المجال هو: **ما مدى تفاعل القبائل اليمنية عامة مع أهداف القيادة الزيدية ؟**

وكما رأينا فإن الزيديين نجحوا – قبيل قدوم العثمانيين – من فرض سلطانهم بقوة السلاح على أغلب المناطق اليمنية. إلا أن قدوم العثمانيين سنة ١٥٣٨م إلى اليمن قد حرمهم من هذه الهيمنه، وصعب معه مهمة الباحث فى الحكم على مدى تقبل اليمنيين كافة لحكم الزيديين وذلك لقصر فترة حكم الأخيرين على المناطق الشافعية وغيرها مما وقع تحت حكم العثمانيين. غير أنه يمكن لنا الزعم بأنه على ضوء العلاقات الزيدية – اليمنية على مر التاريخ الحديث، يمكننا الذهاب مطمئنين إلى الإعتقاد بأن الحكم الزيدى فى مناطق الهيمنة الشافعية والإسماعيلية لابد وأن يكون

مرفوضا إعتبارا من سياق الأحداث التاريخية إبان سيطرة الزيديين عليها فى تالى العهود (الإمام إسماعيل بن القاسم ومن خلفه)، ولعل الإختلاف المذهبى فى هذا الإطار لعب دورا رئيسيا فى رفض المناطق الشافعية أو الإسماعيلية للهيمنة الزيدية.

من هذا المنطلق يمكن لنا الزعم أن المطهر بن شرف الدين قد نجح باقتدار مشهود له فى توظيف التمرد المعتاد للقبائل اليمنية على الحكومات إبان فترات الضعف أو التخبط السياسى لخدمة مصالحه الخاصة، فالقبائل اليمنية فى معظمها تعودت خوض الحروب لتحقيق مكاسب مادية آنية، وفى المقابل فالمطهر بن شرف الدين كان يهدف ويتوق إلى مد سلطانه وتوسيعه إلى أكبر مدى ممكن، ولن يتأتى له ذلك إلا على حساب العثمانيين. إذن لم يكن هدف القبائل الثورة على العثمانيين لتخليص بلاد اليمن من حكم العثمانيين، بقدر ما هى الرغبة فى ترجمة المصالح الخاصة. ولا يستطيع الباحث الإطمئنان كثيرا إلى أن دوافع المطهر لحرب العثمانيين كانت دوافع قومية أو وطنية قدر ما هى قنص فرص لاحت لتحقيق كسب سياسى أو عسكرى بتوسيع أرجاء ممتلكاته الخاصة.

وقد نجح المطهر بن شرف الدين فى توظيف تمرد القبائل هذا ليبدو وكأنه ثورة عارمة من جموع اليمنيين ضد الحكم العثمانى حتى تأتمر القبائل بأمره فتثور إن ثار وتخمد إن أمر بذلك!!.

ولعله من الإنصاف أن نقول أن هذا يمثل جزءا من حقيقة التمرد على الحكم العثمانى، إذ أن كثيرا من القبائل الزيدية كانت ترى فى المطهر بن شرف الدين خير من يقودها لتحقيق ما تصبو إليه من مكاسب مادية، فلماذا لا تأتمر بأمره؟ كذلك الحال مع القبائل اليمنية غير الزيدية والتى لا ترى فى أئمة الزيديين وأمرائهم قادة لها، وإنما قد تدفع المصالح الخاصة هذه القبائل والجماعات للتغاضى عن هذا الأمر، فاندفعت

معظم هذه القبائل فى نفس الإتجاه الذى إندفع إليه المطهـر، إلا أنهـا كـانت تختلـف فـى أهدافها. وبدا وكأن هذا التمرد ثورة عارمة من اليمنيين لتصفيـة الوجـود العثمـانى فـى بلاد اليمن. ولعل عدم الإشتراك فى الأهداف يفسر السرعة التـى نجـح بهـا العثمـانيون فى إستعادة ما سلب منهم، وذلك لتقاعس القبائل وتشرذم القيادات اليمنية.

• • •

الهوامش:

١- سيد مصطفى سالم: الفتح العثمانى الأول لليمن (٩٤٥-١٠٤٥هـ/١٥٣٨-١٦٣٥م). ط٢، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٤ ص ١٣١-١٤٢.

٢- المرجع نفسه ص ١١١.

٣- عيسى بن لطف الله: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة فى اليمن من الفتوح، مخطوط، مكتبة جامعة الملك عبد العزيز رقم ١٨٤٢ ص ٢٠.

٤- يحيى بن الحسين: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القسم الثانى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٦٥٧.

٥- المصدر نفسه، ص ص ٦٦٣-٦٨١.

٦- المصدر نفسه، ص ص ٦٥٨-٦٥٩.

٧- R.B. Serjeant and Lewcok, eds. Sana: an Arabian Islamic City, London, 1983, p:69

٨- سيد مصطفى سالم: المرجع المذكور، ص ١٤٠.

٩- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ٦٥٨.

١٠- يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية. المجلد الثانى. ترجمة: عدنان سليمان ومنشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، استنبول، ١٩٩٠ و ص ٣٧٤.

١١- المرجع نفسه، ص ص ٤٢٠-٤٣٤.

١٢- سيد مصطفى سالم: المرجع المذكور، ص ص ٦٧-٦٨.

١٣- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: "النشاط التجارى فى البحر الأحمر": فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة. القاهرة. جامعة عين شمس، سمنار، الدراسات العليا للتاريخ الحديث ١٩٨٠، ص ص ٢٤١-٢٦٠، ص ص ٢٤٦-٢٤٨.

١٤- سيد مصطفى سالم: المرجع المذكور، ص ١٦٠.

١٥- عبد الصمد بن إسماعيل الموزعى: الإحسان فى دخول مملكة اليمن تحت ظل آل عثمان، تحقيق: عبد الله محمد الحبشى، ص ص ٢٥،٢٦.

أنظر أيضا:

١٥- R. playfair, A history of Arabia Felixor Yemen, Amsterdam, 1970, p112

١٦- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ٣٧.

١٧- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ص ٦٨٥،٦٨٦.

١٨- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ٤١.

١٩- المصدر نفسه ص ٤٢.

٢٠- R.B. Serjeant and LEWCOCK, OP-CIT. P : 70

أنظر أيضا:

J.R.Bgackburn, "The Ottoman Penetrtion of Yemen", Archiveem ottomanicum, VI, 1980, p.p. 55-110.

٢١- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ص ٧٠٣-٧٠٤.

٢٢- المصدر نفسه، ص ص ٧٠٤-٧١٢.

٢٣- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ٦١.

٢٤- المصدر نفسه، ص ٦٢.

٢٥- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ٧٢٤.

٢٦- سيد مصطفى سالم: المرجع المذكور, ص ص ٢٣٢-٢٣٣.

٢٧- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ص ٦٢-٦٣.

٢٨- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ٧٢٦.

٢٩- يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ص ص ٧٢٦-٧٢٧.

٣٠- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ٦٤.

٣١- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ٧٢٨.

٣٢- المصدر نفسه، ص ٧٢٩.

٣٣- المصدر نفسه، ص ٧٣٠.

٣٤- المصدر نفسه، ص ٧٣٠.

٣٥- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ١٠٤.

المصادر العربية والأجنبية

أولا: المخطوطات:

- الجرموزى، المطهر: تحفة الأسماع والأبصار بما فى السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار.

مخطوط، مكتبة الجامع الكبير، الغربية، رقم ٧٣ تاريخ.

- الكبسى، محمد بن إسماعيل: اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية.

مخطوط، جامعة الملك سعود، رقم ١/٣٨٤، الرياض.

- المطهر، عيسى بن لطف الله: تاريخ روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة فى اليمن من الفتن والفتوح.

مخطوط، مكتبة جامعة الملك عبد العزيز، رقم ١٨٤٢، جدة.

ثانيا: المصادر العربية:

- ابن الديبع، عبد الرحمن بن على: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون.

تحقيق: محمد بن على الأكوع، القاهرة.

- الجرافى، عبد الله بن عبد الكريم: أبناء اليمن ونبلاؤه. الجزء الأول من القسم الرابع، مكتبة الجامع الكبير، الغربي، رقم ٣٤٤، صنعاء.

- الحسين، يحيى: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى.

تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القسم الثانى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨.

- النهروالى بن محمد بن أحمد: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى. دار اليمامة، ١٩٦٧.

ثالثا: المراجع العربية:

- اوزتونا، يلماز: تاريخ الدولة العثمانية. المجلد الثانى، ترجمة عدنان محمود سلمان، استانبول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٩٠.
- البحراوى، محمد عبد اللطيف: فتح العثمانيين عدن وإنتقال التوازن الدولى من البر إلى البحر. دار التراث، القاهرة، ١٩٧٩م.
- بومخرمه، أبو محمد عبد الله الطيب إبن أحمد: تاريخ ثغر عدن، ليدن، ١٩٣٦.
- الحداد، محمد يحيى: تاريخ اليمن السياسى، ج٤، دار الهنا للطباعة، ١٩٧٦م.
- الحيمى، الحسن بن أحمد: سيرة الحبشة. تحقيق: مراد كامل. ط٢، دار العالم العربى، القاهرة.
- الرمال، غسان على محمد: صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجرى – السادس عشر الميلادى. دار العلم، ١٩٨٥.
- سالم، سيد مصطفى: الفتح العثمانى الأول لليمن. ط٣، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨.
- شرف الدين، أحمد حسين: اليمن عبر التاريخ. ط٢، القاهرة، ١٩٦٤.

- عبد الرحيم، عبد الرحمن: النشاط التجارى فى البحر الأحمر: فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة (أبحاث الإسبوع العلمى الثالث ١٠-١٥ مارس ١٩٧٩، فى سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث)، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٠.
- العبدلى، أحمد فضل بن على: هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن. دار العوده، بيروت، ١٩٨٠.
- العرشى، حسين بن أحمد: بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام. تحقيق: انستاس الكرملى..مطبعى، القاهرة، ١٩٣٩.
- العقيلى، محمد بن أحمد عيسى: تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ. مطابع الرياض، ١٩٥٨.
- كامل، محمود: اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٨.
- الموزعى، عبد الصمد بن إسماعيل: الإحسان فى دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان. تحقيق: عبد الله محمد الحبشى. منشورات المدينة، صنعاء، ١٩٨٦.
- الواسعى، عبد الواسع بن يحيى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن. القاهرة، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

رابعا: المصادر الأجنبية:

- Blackburn, J.R. The Ottoman Penetration of Yemen, Archiveem Ottomanicum, VI, 1980, p.p. 55-1110
- Playfair, Robert, A history of Arabia Felix or Yemen, Amsterdam, 1970.
- Searjeant, R.B. & Lewcock, eds, Sana: an Arabian Islamic City, London, World of Islam Festival trust, 1983.
- Serjeant, R.B., The portuguese of South Arabian Coast, Beirut, Lirairie Duliban, 1944.